

العصبية الأسرية

بقلم الدكتور جورج حنا

او يجدد منها مخالف لطبيعته الانسانية وينبغي ان يزول . ومن اهم العوائق لاجتماعية الانسان العصبية بمختلف اشكالها والوانها واسماؤها .

ومن الادلة المحسوسة على ذلك ما نراه في الشعوب التي لا تزال تقيم للعصبية الوزن الاكبر في حياتها ، كما هي الحال في الشعوب الشرقية ، حيث تقف العصبية حاجزاً بوجه الانطلاق الاجتماعي . فالمرء في هذه الشعوب مقيد بعبادات انسابه وابناء عشيرته أو دينه وظروف معيشتهم ومفاهيمهم لقيم الحياة . قلنا ان العصبية تبدأ اول ما تبدأ بالعائلة ثم بالاسرة لكي تشمل فيما بعد العشيرة فالقوم فالمذهب . فاذا كان صحيحاً ان العصبية تضع سدوداً في طريق الانطلاق الاجتماعي ، وهو صحيح ، فحريّ بالانسان ، انسان عالم اليوم ان يتخطى هذه السدود ويسعى لازالتها من الطريق إذا شاء ان يكون جديراً بالعالم الجديد المفتوحة فيه ابواب التقدم الاجتماعي والفكري والاقتصادي والعمري ، مبتدئاً بازالة العصبية الضيقة أولاً . هنا يجب تحديد معنى العائلة لكي لا ينبري من يقول اننا نعني هدم هذه النواة الاجتماعية الصالحة ، والحق أنه ينبغي التفرقة بين العائلة والاسرة .

فالعائلة هي مجموعة صغيرة من الناس تجمع بينهم صلة الرحم ويحصل بينهم اتحاد أو التحام ويصبحون كأنهم جماعة في واحد . هذا النوع من الالتحام بين اهل الارحام امر طبيعي ولا يصحّ تسميته بالعصبية ، ولذلك لا ينطبق عليه ما قلناه عن العصبية

كلما مشى العالم قدماً في التطور الاجتماعي والانساني خفت حدّة العصبية فيه لتحل محلها الذاتية الانسانية . فالعصبية في الماضي كانت واسطة العقد بين الجماعات المختلفة من البشر لأن الذاتية الانسانية لم تكن قد بلغت مرحلة من التطور تجعلها هي القيمة على تكييف نفسها وتكييف الوسط الذي تعيش فيه وخلق شروط صالحة لحياة جماعة صالحة . وبسبب هذا النقص الحاصل في الذاتية الانسانية ، وبالنظر لحاجة البشر الى الاعمال الجماعية ، سواء كانت لتأمين معيشة ام لصدّ عدوان ام لشنّ عدوان ، كان لا بد من قيام تكتلات بين الناس ، تتحالف احياناً ، وتتخالف احياناً اخرى وفق الظروف ، والحاجة والغاية . وقد بدأت العصبية عند الناس في العائلة ثم توسعت الى الاسرة ، ثم الى العشيرة ، ثم الى القوم ، ثم الى العنصر فالجنس فالدين ، وكان هذا التوسع حافزاً لتقسيم البشر الى عصبية متعددة ، قيمة الذات الانسانية فيها رهن بانتمائها لهذه العصبية او تلك . ولقد طالما كان هذا التكتل العصبي سبباً للتخالف والتصادم بين الاقوام طمعاً بالتغلب والكسب ، او استجابة لهوس رئيس من رؤساء العصبية المختلفة . فالفرد تابع لرئيس عصبية ومتماسك مع افرادها الآخرين على الخير والشرّ سواء بسواء ، اذ قلما يتاح له ابراز ذاتيته فيما يخرج عن نطاق الخدمات التي باستطاعته تأديتها لئلا تصير عصبية وتغليبها على سائر العصبية . ان اجتماعية الانسان هي من صلب طبيعته ومن ميزات وجوده ، وكل ما من شأنه ان يقف بوجه اجتماعية الانسان

ان لا أهادن شارعاً عُصرت بلاداً كي يُمدأ ..
ان لا تُعرى أمة لتلف بالديباج فرداً ..
ان لا أحس على المأسى الحمر .. افراحاً، ورغداً ..
ان لا اطيق النور .. كفسناه عن غيري وحداً ..
ان استريح الى الظلام .. يبيء الفجر المندى ..
حلب سليمان العيسى

حلم على شفة المساء ؛ وفي ضمير الليل ففكره ..
ما امتع الانسام .. قد عصر الدجى فيهن سحره !!
يلسن وجهي بالعبير .. فنستحيل هوى ، وخرمه !!
ما اعذب الانسام .. لو هذأن في سعي جمره !!
★
ولويت دري .. تاركاً بيبي ، وبين الليل ، عهداً ..

بعناها الكامل وعن وقوفها بوجه الانطلاق الاجتماعي .

أما الأسرة فهي مجموعة أكبر من المجموعة الأولى لا تجمعها صلة الرحم وحسب بل تجتمع على وجه من وجوه النسب معها بعدت صلة الرحم بين أفرادها ، لتشكل عصبية مستقلة عن سائر العصبية البشرية ، تتناصر في الملمات وتتعصب ضد العصبية الأخرى . هذه العصبية - أي عصبية الأسرة - هي بداية العصبية الواسعة التي تحدث من الانطلاق الاجتماعي والانساني ومن الخير الا تكون .

ان الالتحام الذي تفرضه صلة الرحم شيء طبيعي ، وتقرّب الملتحمين بهذه الصلة ومناصرة بعضهم لبعض يفرضها الناموس الطبيعي بل يبررها الناموس الطبيعي حتى في الحالات التي تكون فيها المناصرة على شيء من الخطأ . ولكن ما تعدى حدود هذا الالتحام واصبح تكتلاً على اساس وحدة النسب فهو خروج عن حدود الناموس الطبيعي ، ومن شأنه خلق عصبية يستغنى عنها وليس منها فائدة في المجتمعات التقدمية ، اذ ان العصبية التي يرافقها التعصب ، وكل عصبية يرافقها التعصب ، تشكل بؤرة فاسدة في النظام الاجتماعي . ومن قديم الزمن قال ابن خلدون : « ان النسب امر وهمي لا حقيقة له ونفعه انما في هذه الوصلة والالتحام وحسب (يعني صلة الارحام) فاذا تعدى ذلك ذهب فائدته وصار الشغل به مجاناً ومن اعمال اللهو المنهي عنه ، ومن هذا قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضرر بمعنى ان النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتقت النصرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ » .

وفي الشعوب المتقدمة اجتماعياً فلما يقام وزن للنسب . فالاعتبارات الاسرية آخذة في الزوال شيئاً فشيئاً . والاسرة نفسها لم يعد يحكى بها كثيراً ، وقد زالت فعلاً في اكثر مجتمعات هذه الشعوب التي رأت ان اجتماعية الانسان يجب ان لا تحدها العصبية الاسرية . في ما يخرج عن حدود العائلة ، كما حددها ابن خلدون افضل تحديد ، اخذ ابناء هذه الشعوب المتقدمة بالقول المأثور : « القريب من تقرب لا من تنسب » . والتقرب بنظر الاجتماع الراقى ، انما يكون عن طريق ذاتية الانسان وإمكانية انطلاقها ومقدار تفهمها لغيرها من الذاتيات ، واستعدادها للتفاهم معها ، والتعاون على ما يكون منه الخير للجنس البشري . لقد فتح العلم آفاقاً جديدة للذاتية الانسانية كانت مقفلة بوجهها عندما كانت العصبية الاسرية ، التي تخلق

فيها ، بل تبدأ منها العصبية القومية والعنصرية والدينية ، فلا تلبث ان تنقلب الى تعصب أسري وقومي وعنصري وديني . إذن يجب ان نحل العقدة الأولى من عقيدات العصبية ، لكي تفرط السلسلة كلها ، وعندئذ يزول الخطر الكبير الناتج عن مختلف العصبية ، وتحرر الذاتية الانسانية من عقلاها المصطنع ، وتنطلق في تكوين مجتمع انساني او مجتمعات انسانية افضل من المجتمعات الراهنة . ولا صحة لادعاءات الخالفين لهذه النظرية ، بان زوال العصبية الاسرية وما يتبعها ، يقضي حقاً بزوال القومية . فالقومية الصحيحة والصالحة هي تعايش سلمي وتعاوني في قوم تربطهم اللغة والارض والتاريخ والمصلحة . فاذا خرجت القومية عن هذا المفهوم ، وكانت عصبيتها مدعاة للتعصب القومي والعنصري ، وهي كذلك ، يحل التجاسد والتباغض بين القوميات محل التعايش السلمي وتصبح الحروب ظاهرة لا مفر منها في حياة الانسان .

وبصرف النظر عما تؤول اليه العصبية الاسرية من عصبية قومية ودينية متعصبة ، نتيجة لتقلب اسرة عريقة على اسر غير عريقة ، او نتيجة لاعتبارات جغرافية او مصلحة او دينية ، فالعصبية الاسرية هي سبب من اسباب التفسخ والتباغض في الشعب الواحد ، وهي بالتالي عامل من عوامل اضعاف قوميته بالذات ، وعدم تقدمها حضارياً ، وجعلها مطية سهلة لقوميات اخرى اكثر تماسكاً ، فالقومية التي تأتي عن طريق الفرض والقوة والتعصب ، قومية تعصبية وخطرة ، اما القومية التي تقوم على التفهم والتفاهم والارادة فهي القومية الصالحة التي يقرها المجتمع الانساني الصالح .

من اجل هذا نقول ان الذاتية الانسانية متى ارتقت ووعت وتطورت تطورا علمياً وتقدمياً ، تصبح واسطة العقد الفضلى بين البشر افراداً وجماعات ، وتمتحي عندئذ العصبية غير الواعية سواء أكانت عصبية النسب ام القومية ام العنصرية ام الدينية . ولعلي لا اكون مخطئاً إذا قلت ان العصبية الاسرية المتأصلة في شعوبنا العربية ، والتي تغذيها فيها انظمة الحكم وتقاليد الاسر ، والتمسك باوهام النسب ، وغيبات المذاهب الدينية ، والتي تجدها وتشيد بها القلة الخاصة ، التي تدعي شرف الحسب والنسب بقصد استغلالها لمصلحتها الخاصة وليس لمصلحة المجموع ، والتي يباركها الاستعمار للافادة مما تهيئه له من التفرقة والتجاسد والتنافر في شعوب يطمع باستعبادها واستئثار خيراتها ، لعلني لا اكون مخطئاً إذا قلت ان العصبية الاسرية هذه هي من أهم اسباب تأخر العالم العربي وطمع الآخرين به .

جورج حنا